

## التعليم الإلزامي في مصر

للأستاذ أبي خلدون ساطع الحصرى

مدير دار الآثار العراقية

—♦♦♦♦♦—

قرأت في مجلة مصرية مقالة لأحد الأساتذة ، يقول فيها :  
« إن تقارير مفتشى التعليم ومراقبيه » أظهرت في السنين الأخيرة شيئاً جديداً لم يكن ملحوظاً من قبل ، وهو أن الأولاد الذين يمارسون الزراعة في الحقل أو الصناعة في المعمل أو التجارة في السوق من متخرجى المدارس الإلزامية ، لا تكاد تفضى عليهم أربع سنوات أو خمس ، حتى ينسوا القراءة والكتابة ، وتغى من ذاكرتهم البقية الباقية من الحروف الأبجدية ، فيعودون بذلك إلى الأمية مرة أخرى ... »

إننى لم أطلع على نصوص التقارير التى يشير إليها صاحب المقال ، فلا أعرف تفاصيل ملاحظه المفتشون في هذا الباب . ومع ذلك لم أجد في هذه النتيجة شيئاً يستوجب الاستغراب ، نظراً إلى ما أعرفه عن الظروف المحيطة بالتعليم الإلزامى في مصر من جهة ، وعن التجارب التى صرت على الأم الغربية في هذه القضية من جهة أخرى ...

إننى لا أشارك المحرر في الأسباب التى يمزو إليها هذه النتيجة ، كما لا أوافق على الوسائل التى يقترحها لمعالجة القضية . ومع هذا لا أرى لزوماً لمناقشة الآراء الواردة في المقال المشار إليه ، بل أفضل أن أبحث عن القضية من « أساسها » ، بقطع النظر عن آراء المحرر فيها

— ١ —

يظن الكثيرون أن « تعليم القراءة من الأمور البسيطة » التى يستطيع أن يقوم بها كل من « يعرف القراءة والكتابة » وبالأحرى كل من يعلم شيئاً من « مبادئ أصول التدريس » . في حين أن هذا التعليم من الأعمال الدقيقة المحققة بالزالت الكثيره التى لا يمكن تجنبها إلا بيقظة متواصلة وتعمير خاص .. لأن « تعليم القراءة » لا يبنى « تعويد الطالب على قراءة

بعض الكتب المينة » ، بل يعنى « إكساب الطالب مقدرة على قراءة أى كتاب كان »

ومع هذا ، فكثيراً ما نجد أن المعلمين لا يتقنون خطورة هذا المبدأ حق التقدير ؛ فيوجهون جهودهم إلى تعليم القراءة من الكتب المدرسية المخصصة لهذا الغرض ، دون أن يعمروا الطلاب على القراءة السريعة بوجه عام

في حين أن الطلاب كثيراً ما يتعلمون قراءة تلك الكتب على طريقة الاستظهار ، دون أن يجهدوا أنظارهم وأذهانهم في تتبع الكلمات المطبوعة في سطورها . وكثيراً ما يتخذ المعلمون بسرعة هذه القراءة ، فلا ينتبهون إلى أن الطالب قد قرأ معظم ما قرأه عن ظهر الغيب ، دون ملاحظة الكتاب . وهذه الحالة تنفضى بوجه خاص ، عند ما يكون الصف مزدجماً بالطلاب ، وعند ما يمتشى المعلم في تدريسه على طريقة سيكانيكية ، لا نصب فيها لليقظة والاهتمام . يقرأ المعلم العبارة بنفسه بصوت جهورى ، ثم يطلب قراءتها من أحد الطلاب ، ثم من ثان ، فثالث ، فرباع ؛ ويكرر هذه العملية عشرات المرات .. وكثيراً ما تنصرف أنظار القسم الأعظم من سائر الطلاب - خلال هذه القراءة والتكرار - عن أسطر الكتاب إلى أشياء أخرى ؛ غير أن آذانهم تبقى مستهدفة لتأثير الألفاظ التى يلفظها المعلم ويكررها سائر الطلاب ، بطبيعة الحال . وإذا ما تكررت قراءة العبارات عدة مرات ، يكون هؤلاء الطلاب قد حفظوا الشيء الكثير منها عن طريق السمع ؛ وإذا ما جاء دورهم في القراءة ، أخذوا يقرأونها « قراءة ظاهرية » تكون حمسة النظر فيها محدودة جداً ، ويكون العامل الأسمى في سرعتها هو الحافظة السمعية وحدها ..

ولذلك كثيراً ما نرى بعض الطلاب « يقرأون دون أن ينظروا » ؛ وإذا ما طلب إليهم أن يبدأوا القراءة من محل غير المحل المعتاد ، يضطرون إلى التهجى ، فيقرأون بتلثم وترده وبطء ؛ غير أنهم إذا ما تمكنوا من قراءة الكلمة الأولى بمد هذا الجهد ، فتذكروا الكلمة التى تليها ، أخذوا يستمعون بذناكرتهم السمعية ، فساروا يقرأون ما يمدها بسرعة واسترسال ... وكثيراً ما لا ينتبه المعلمون إلى « حقيقة الأمر » في هذه القراءة الظاهرية ، وينخدعون بهذه السرعة ، ويظنون أنهم نجحوا في تعليم القراءة ..

بصورة تدريجية ... وسيزداد هذا الضعف على عمر السنين فيعود صاحبها إلى دور القراءة « بالهجي » كالبنتيين؛ وإذا استمر الحال على هذا النوال مدة أخرى ، فسيفقد قابلية القراءة التي كان اكتسبها في المدرسة ، وسيعود إلى الأمية مرة أخرى

وهذا هو ما يحدث في الحياة الاعتيادية . في كثير من الأحيان ينتهي الطفل من التعليم الاثرائى فيترك المدرسة ويذهب إلى الحقل أو العمل ، للاشتغال مع والديه ... ولا يجد هناك فرصة لتغذية القابلية التي كان قد اكتسبها ، ولا يشعر بدافع يدفعه إلى قراءة شيء يحركه ويجدد تلك القابلية ، فينسى في حياته الجديدة ، بصورة تدريجية كل ما كان اكتسبه في حياته المدرسية ...

إن القول بأن « التعليم في الصغر كالنقش في الحجر » بصورة مطلقة ، لا يتفق مع الحقائق الراهنة : فإن السماع ليس من نوع الأحجار الجامدة التي تحافظ على كل ما ينقش فيها ؛ والقابليات التي يكتسبها السماع لا تشبه النقوش التي تحفر على الحجر بوجه من الوجوه ؛ ولا سيما دماغ الطفل ، فإنه يمتاز بمرونة كبيرة ، يكتسب بسرعة ، غير أنه قد يفقد أيضاً بسرعة

هذه حقيقة هامة يجب أن نضعها نصب أعيننا عند ما تفكر في أمر التعليم الاثرائى ومكافحة الأمية : يجب علينا أن نهتم بتغذية قابلية القراءة وتقويتها — بعد المدرسة — بقدر ما نهتم بتوليدها وتمهيتها في المدرسة ... يجب علينا أن نتوسل بشئ الوسائل التي تدفع إلى القراءة — بعد الانتهاء من الدراسة الاثرائية — خلال مزاولة أعمال الحياة الاعتيادية ...

وإلا ، فيجب علينا ألا نستغرب إذا ما وجدنا « قابلية القراءة » التي بذلنا كل تلك الجهود في سبيلها قد أخذت تندثر وتتلشى شيئاً فشيئاً ... و « الأمية » التي قضينا كل تلك الأوقات في سبيل مكافحتها داخل المدرسة وفي سن الطفولة ، عادت إلى الحكم بعد مدة ، فاستولت على النفوس تدريجياً في ساحة الحياة ، وفي سن الرشد والشباب ...

— ٣ —

إن تجارب الأمم الغربية — المسطورة في تواريخ معارفها — تؤيد الملاحظات النظرية التي سردناها آنفاً ؛ فإن رجال معارف

شاهدت هذه الحالة في عدد غير قليل من المدارس في دروس مئات من المعلمين ، وما أعرفه عن مدارس التعليم الاثرائى في مصر يخولني حق الجزم بأن هذه الحالة ليست من الأمور النادرة هناك أيضاً ...

وعندما تكون طريقة تدريس القراءة مشوبة بهذه الصورة بنواقص وشوائب كثيرة ، فلا حاجة للبيان بأن عدداً غير قليل من الطلاب عندما ينتهون من الدراسة الاثرائية ، لا يكونون قد تعلموا القراءة بكل معنى الكلمة ، بل يكونون قد تعلموا قراءة بعض الكتب قراءة ميكانيكية ، لم تخرج من دور الهجي والتردد إلا بإعانة الذاكرة السمعية ... فهل من مجال للاستغراب إذا ما فقد هؤلاء خلال بضع سنوات ما كانوا قد اكتسبوه من المقدرة السطحية في القراءة الميكانيكية فمادوا إلى الأمية بصورة تدريجية ؟

فاذا أردنا أن نتجو من هذه المزلقة الأليمة ، يجب علينا أن نهتم بإصلاح طرق تعليم القراءة ، ونسعى إلى حمل الطلاب على قراءة كتب متنوعة ، فتجنب كل ما من شأنه أن يجعل القراءة ميكانيكية وظاهرية

— ٢ —

مع هذا يجب على أن أصرح بأن كل ذلك أيضاً لا يضمن معالجة المشكلة التي نبحث عنها معالجة قطعية

لأن « مقدرة القراءة » في حد ذاتها ليست من الأمور التي ترسخ في النفس بمجرد اكتسابها ، بل هي من القابليات التي لا تمشي وتنمو إلا بالعمل والتكرار والمران .. إنها من القابليات التي تضعف وتتلشى شيئاً فشيئاً عندما تبقى « عاطلة » ولا تجد مجالاً للعمل بصورة متصلة ...

إفرضوا أن طالباً مجتهداً ونهياً ، قد تعلم القراءة بصورة جيدة ، فأصبح قادراً على قراءة الكتب بصورة مرضية ... ثم تصوروا أن هذا الطالب ترك القراءة بعد خروجه من المدرسة ؛ فقد مضى عليه عدة سنوات دون أن يقرأ شيئاً ، ودون أن يجد في بيئته دافعاً يدفعه إلى استعمال قابلية القراءة التي كان اكتسبها قبلاً . لا شك في أن القابلية البحوث عنها سوف لا تحافظ على قوتها مدة طويلة من الزمن ، بل ستكون عرضة للضعف

حدث تطور عظيم في أهداف الدروس والمدارس الخاصة بالراشدين . غير أن الأهداف الحالية والتطورات الأخيرة يجب ألا تنسنا الغرض الأصلي الذي كان استوجب إحداث مثل هذه الدروس والمدارس . ويجب أن نلاحظ على الدوام أن تلك الدروس والمدارس لعبت دوراً هاماً في ضمان نجاح التعليم الاثرائي ، ومكافحة الأمية في عهدها الأولى

\*\*\*

إنني أعتقد أن الملاحظات الآتية التي ذكرتها لاظهار أنواع الواجبات التي تترتب على وزارات المعارف التي تهتم بأمر التعليم الاثرائي ومكافحة الأمية :  
يجب عليها أن تسمى لتحسين طرق تدريس القراءة ، وتدريب المعلمين للقيام بأعباء هذا التدريس كما يجب عليها أن تتخذ التدابير اللازمة لايجاد سلسلة كتب ونشرات ملائمة لحاجات الناس وميولهم ، على اختلاف مناهجهم وبيئاتهم ...

ويجب عليها أن تتوسل بوسائل متنوعة لنشر تلك الكتب بين الناس ، لتسهل تنفيذ رغبة المطالعة في قلوبهم ... وأخيراً يجب عليها أن تتوسل بيمض الوسائل التي تضمن اجناع الشبان في المدرسة من حين إلى حين - بعد انقضاءهم من سنى التعليم الاثرائي - لإدامة علاقتهم بالدرس والمطالعة بصورة منتظمة ...

وإذا لم تفعل ذلك يجب أن تعلم جيداً أن الجهود التي تبذلها والنقطة التي تنفقها في سبيل نشر التعليم في الأرياف وبين جميع طبقات الناس ، لا تثمر الثمرة الكافية ، ولا يبعد أن يذهب معظمها هباءً منثوراً ...

أنهز هذه الفرصة لألفت أنظار وزارات المعارف في البلاد العربية - ولا سيما في مصر - إلى هذه الواجبات التي تترتب عليها لإتمام مهمتها في نشر التعليم ومكافحة الأمية بصورة فعلية قلت : لا سيما في مصر ... لأنها المملكة العربية الوحيدة التي استطاعت أن تسن قانوناً للتعليم الاثرائي ، وأن تضع خطة عملية لتنفيذ أحكام ذلك القانون ، وتحقيق نشر التعليم بين جميع طبقات الناس وفي جميع أنحاء البلاد ... فعلها - قبل غيرها - بترتب واجب الاسراع في اتخاذ التدابير التي سردها آنفاً ...  
سالم المصري (بغداد)

تلك الأمم أيضاً كانوا قد اضطدوا بالمشكلة التي يمتنعونها ، في بدء انكبابهم على تميم التعليم ومكافحة الأمية ؛ وهم أيضاً كانوا قد لاحظوا - عندئذ - أن معظم الطلاب الذين يتخرجون من المدارس الابتدائية ويدخلون معترك الحياة ، ينسون بصورة تدريجية الكثير مما كانوا تعلموه في المدرسة خلال سنى التعليم الاثرائي . وكثيراً ما يصل بهم الأمر إلى درجة « نسيان الأبيدية » والعودة إلى الأمية

إن هذه النتيجة مَثَلت للمعان ، على وجه أخص ، عندما أخذوا يفحصون معلومات الراشدين الذين يلغون السن العسكرية فيدخلون الثكنات ... فقد وجدوا بين هؤلاء الجنود عدداً غير قليل من الذين لا يستطيعون أن يقرأوا شيئاً بالرغم من أنهم تعلموا القراءة والكتابة - في طفولتهم - في المدارس التي داوموا فيها

ولذلك أخذوا يبذلون الجهود الكبيرة لمعالجة هذه المشكلة ، ويتوسلون بوسائل شتى لتوقي هذه النتيجة

وكان من جملة الوسائل التي توسلوا بها إحداث دروس ومدارس يجمع الراشدين أيام الأحد ، أو أحد ليالي الأسبوع طول السنة ، أو خلال بضع الأشهر منها بقصد « تكرار » و « ترسيخ » المعلومات التي كانوا اكتسبوها خلال دراستهم الابتدائية ...

إن الألمان الذين كانوا أسبق أم العرب إلى تطبيق نظام التعليم الاثرائي ، أحدثوا مثل هذه الدروس منذ القرن الثامن عشر ، وجعلوا المواظبة عليها من الأمور المحتمة على كل فرد ، منذ انقضاءه من الدراسة الابتدائية حتى دخوله الخدمة العسكرية ... إن كثيراً من الأمم الغربية حذت حذو الألمان في هذا الباب ، في القرن التاسع عشر ، وأحدثت مثل هذه الدروس والمدارس ، تحت أشكال وأسماء مختلفة ...

في الواقع أن الحاجة إلى التوسل بمثل هذه الوسائل قد زالت من العرب ، نظراً إلى انتشار القراءة والكتابة بين جميع الطبقات ، وازدياد حاجة الناس إليها في كل البيئات وفي جميع نواحي الحياة ، وانتشار الكتب التي تليق الناس وتفيدهم مع ازدياد المكتبات التي أصبحت في متناول أيديهم ... فإن كل ذلك لم يدع - في البلاد الغربية - حاجة لإدامة الدروس والمدارس التي كانت تستهدف « التكرار » و « الترسيع » ... ولذلك